البشر، وانما هو رأي يحكم على هذه المثاليات في ضوء الطموحات والممارسة، وفي ضوء مايتشكل في الواقع بالفعل. ونحن ان لم نفعل ذلك اصبح المثل الاعلى ضباباً يغشى الابصار وليس منارة تضيء للانسان طريقه، وتساعده على تغيير واقعه الى واقع افضل. وهذا ما قاله احد القادة الفلسطينيين الى أحد اعضاء جماعة بريت شالوم من دعاة السلام مع العرب: «احب ان اخبرك، بكل صراحة انني افضل ان اتعامل مع شخص مثل جابوتينسكي على التعامل معك. اعرف تماما ان جابوتينسكي هو عدونا اللدود واننا ينبغي ان نحارب ضده، بينما يبدو انك صديقنا. ولكن، بكل صراحة، لا ارى اي فارق بين هدفك وهدف جابوتينسكي؛ انت، ايضاً، تتمسك بوعد بلفور والوطن القومي والهجرة بلا قيد ولا شرط وشراء اليهود للارض، اي بكل ما هو بالنسبة الي مسألة حياة او موت»[٢٠].

ان ما يقوله العربي هنا ليس تعبيراً عن يأسه بخصوص الطبيعة البشرية، وليس تبنياً لرؤية داروينيه اجتماعية تشبه رؤية الصهيونيين المتمثلة في ان الواقع هو حلبة صراع الجميع ضد الجميع، وانما هي تعبير عن محاولة لفهم الآخر في ضوء فكره وسلوكه. فاذا كان القول مشرقاً عادلاً والفعل مظلماً ظالماً، فلا مناص من ان نضع النقط على الحروف، بل يكون من الافضل، في هذه الحالة، ان نتعامل مع عدو تطابق اقواله المظلمة افعاله الظالمة؛ فهذا الموقف، على الاقل، يتسم بفضيلة الوضوح.

وقد تنبه احد زعماء حزب الاستقلال في فلسطين الى ان الرؤية الصهيونية، مهما بلغت من اعتدال، رؤية، في نهاية الامر، وهمية (ايديولوجية بالمعنى السلبي للكلمة). وان اي تحقق لها يعني سلب حقوق العرب. ولذا، حينما كتب له يهودا ماغنيس يقترح امكان التخلي عن فكرة الدولة اليهودية على ان يسمح لجماعة يهودية ان تتمتع بحكم ذاتي محدود في فلسطين، رد عليه: «لا ارى اي شيء في اقتراحاتك سوى استفزاز صريح ضد العرب، الذين لن يسمحوا لاحد ان يقاسمهم حقوقهم الطبيعية... اما بالنسبة الى اليهود، فليست لديهم اي حقوق سوى ذكريات روحية مفعمة بالكوارث والقصص المحزنة... ولذا، من المستحيل عقد لقاء بين زعماء الشعبين العربي واليهودي»[٢١].

وكان العرب يدركون، تماماً، ان الحديث العذب عن التقدم وخلافه انما هو حديث عن التغييب وعن سلب الوطن. ان التقدم في اطار غير متزن من القوة لصالح المغتصب يعني ان العربي سيفقد كل شيء، خاصة اذا كان الآخر لا يعترف بالعربي ككيان تاريخي، وانما كمخلوق اقتصادي. ولذا، تغير كثير من الشعوب المقهورة استراتيجيتها التحررية، وبدلاً من البحث عن التقدم تفضل الدفاع عن البقاء، او «التشرنق»، اذا ما استخدمنا عبارة المفكر العربي المصري د. شكري عياد. ولعل هذا هو الذي يفسر رفض موسى العلمي لكلمات بن ـ غوريون العذبة حين تقابلا العام ١٩٣٦، في منزل موشي شاريت. فطبقاً لما جاء على لسان بن غوريون، بدأ الحديث بترديد النغمة القديمة التي اعدها «عن المستنقعات التي يجري تجفيفها، والصحارى التي تزدهر بالخضرة، والرخاء الذي سيعم الجميع». ولكن العربي قاطعه، قائلاً: «اسمع! اسمع يا خواجه بن ـ غوريون، انني افضل ان تظل الارض هنا جرداء مقفرة لمئة عام اخرى، او الف عام اخرى، الى ان نستطيع نحن استصلاحها ونأتي لها بالخلاص». وهنا مارس بن ـ غوريون احدى لحظات الادراك النادرة ولم يسعه الا الاعتراف بأن العربي الحقيقي كان يقول الحقيقة، وان كلماته هو (اليهودي الخالص) بدت مضحكة وجوفاء اكثر من اي وقت مضى.

وهكذا ايقن العرب انه لا يمكن التصالح، او التفاهم، او الاستفادة، من مستوطن صهيوني يدرك الواقع بطريقة تنكر وجودهم ابتداء، او تهمشهم على احسن تقدير، وهو ادراك تسانده موازين القوى العالمية والمحلية التي لم تكن في صالح اهل البلد. وقد اثبت مسار التاريخ صدق حدسهم ودقة تقييمهم